دور الثراث الشعبي في تنمية المجتمع الجزائري
"وادي سوف وسيدي بلعباس أنموذجين"

أ. مباركة عماري– جامعة الوادي
د. نجاة بقاص– جامعة سيدي بلعباس
mobaraka.ahmed99@gmail.com

ملخص البحث

يعدّ تاريخ الأمم الغربية والعربية مبنيّ على حضارات وثقافات مختلفة ومتوارثة من جيل إلى جيل، ولكي يستطيع الإنسان أن يستمر في حياته بشكل صحيح لابد من التعرف على ماضي أجداده، والجميل أن يحتفظ بما تركوه كإرث ثقافي لا يمكن الاستغناء عليه، لأنّه يمثل هويته التي يستمد منها شخصيته، وذلك بالتعرف على العادات والتقاليد، المتوارثة من الأجداد فهي تعطي مظهرا قويا في حياة المجتمع، وعليه شكلت الثقافة محورا أساسيا في عملية التنمية الاجتماعية، ولهذا سال حبر الكثير من الكتاب في جمع التراث الشعبي حسب منطقته ومن بينهم نذكر على سبيل المثال: عبد الحميد بورايو، أحمد زغب، بن علي محمد الصالح، علي غنابزية، فالكل حاول جمع ودرس التراث بطرقته الخاصة، فاعتمدوا الوقوف على جذور التراث الأصيل من منبعه سواء كان الفلكلور الشعبي، الأغاني الشعبية، الألغاز الشعبية، الحكم الشعبية، الألعاب الشعبية، الألبسة والمأكولات الشعبية، العمران الشعبي، واللهجة إلخ، فالكل سارع في جمع موروثهم الثقافي خوفا من ضياعه في ظل العولمة وضياع الهوية العربية بحجة التطور والتنمية.

وانطلاقا مما سبق انتهجنا المنهج الوصفي الملائم لطبيعة هذا الموضوع، محاولين تتبع الموروث الشعبي عن طريق المستوى الانثروبولوجي من جميع جوانبه المرتبطة بإنسانية الإنسان كإنسان وبثقافته ووجوده، كما تعرضنا للمستوى الاثنولوجي، وذلك برصد المشهد الثقافي للمجتمع من خلال عرض بعض المظاهر المتوارثة من الماضي البعيد ولا تزال لها آثار باقية لليوم لدى مجتمعي وادي سوف وسيدي بلعباس، في محاولة إبراز دورها التنموي في مجتمعنا الجزائري .

الكلمات المفتاحية: الفولكلور، الألغاز الشعبية، الانثروبولوجي، الاثنولوجي، العادات والتقاليد.

Abstract:

The history of Arab and Western nations is based on the inherited civilizations and cultures. They have to preserve and maintain them

in order to move successfully in their lives because it forms their identity which affects their personality through recognizing their customs and traditions. Culture plays a very important role in improving nations, a lot of writers wrote about the history of their countries depending on the varieties between one place and another, for instance: Abdelhamid Bourayou, Ahmed Zegheb, Ben Ali Mohamed Salah, and Ali Ghanabzia. Every one of these writers collected and used his own way, they based on roots of the original heritage such as the popular folklore, the popular songs, the popular mysteries, the popular wisdoms, the popular games, the folkish food and wearing, the folkish buildings, dialects … All of them hasten to collect their cultural heritage fearing from globalization and losing the Arabic identity in the proof of development and advance.

According the above mentioned information, we have followed the descriptive method because it is the most appropriate for this topic, we have followed the popular heritage according to the anthropological level by presenting all its faces related to people as human beings and their cultural identity. As well as the social cultural heritage through presenting some scenes form the traditions of El Oued and Sidi Belabbes societies which has been used in ancient times and still exist till now and showing that it plays a very important role in developing the Algerian society.

Key words: Folklore, popular mysteries, Anthropology, Ethnology, Customs and traditions.

أولا: المستوى الاثنولوجي:

تختلف ثقافة الشعوب باختلاف العادات والتقاليد المتوارثة فالإنسان في الحقيقة ابن بيئته وبالتالي يعدُّ سجين ثقافة مجتمعه بإرادته واختياره، فالثقافة تعبر عن هويته

وذاته، وعليه فهي عبارة عن موروث أو إرث وهذه اللفظة في اللغة تعني«ورث فلاناً، ومنه وعنه وِرْثًا وإرثاً ورثه، ووراثة صار إليه مالهُ بعد موته، وورث المجد وغيره، ويقال: توارثوا الشيء ورثة بعضهم من بعض»[1].

وإن مشعل الموروث الذي توارثته الأجيال السابقة وتشبثت به كأنّه شيء مقدس لا يسمح بمساسِه، مع مرور الزمن وامتزاج الثقافات ظهر ما يعرف بالعولمة والتطور والتنمية فقد تخلت بعض الشعوب عن عاداتها وتقاليدها، وبالتالي ضاعت هويتها وداست كرامتها، وفي ظل هذا وذاك أردنا أن نرى مدى تمسك مجتمعي وادي سوف وسيدي بلعباس بموروثهم الثقافي في ضوء التنمية الاجتماعية.

وبما أن الأثنولوجيا فرع من فروع الأنثروبولوجيا الثقافة حسب رأي الأمريكيون، فقد أردنا الوقوف عندها وقفة مثرية وذلك بإسقاطها على النموذجين المدرجين للدراسة، وخاصة أنّها تدرس«المقارنة لأوجه الاختلاف والاتفاق بين الحضارات لاستنباط تعميمات حول أصولها وتطورها وتنوعها»[2]. ومنه فهي تعتمد على رصد الصرح الثقافي المتوارث لمجتمع.

أمّا الأثنوبولوجيا فهي«علم دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا»[3]، وبهذا فإنّ هذا العلم يدرس حياة الإنسان من جميع النواحي سواء كانت اجتماعية أم الثقافية أم تاريخية، وعليه فإنّ العالم "وليام أوجبرن" قد قسم الثقافة على اعتبارها موروث شعبي إلى قسمين أحدهما غير مادي(المتكيفة)[4]، والذي تمثل في الجانب الاجتماعي كالعقائد والتقاليد والعادات والأمثال والحكم الشعبية والألغاز والشعر والغناء الشعبي وغيرها، أمّا الجانب المادي يضم الأشياء والأدوات والعمران والأماكن الأثرية والمتاحف والملابس التقليدية وحلي والحرف اليدوية الخ. ومنه سنحاول تعرض لهذه النقاط فيما يلي:

1)- موروث العادات والتقاليد:

لكل أمة من الأمم وشعب من الشعوب موروث ثقافي قد يكون روحي متمثل في«الجانب الفكري الذي تعبر عنه العادات والتقاليد»[5]، فهذه الأخيرة لها دلالة على

نوع الأخلاق ونوع العقلية للشعوب[6]، ومن خلال العادات والتقاليد تتضح مميزات وخصائص وأفكار وثقافة منطقتي عينة الدراسة، وسيظهر ذلك فيمايلي:

- الأسرة: لقد شكلت الأسرة في مجتمعي عينة الدراسة ركيزة كبيرة في بناء المجتمع، وذلك بنوعيها الأسرة النووية[*]، والأسرة الممتدة التي« تتسع للآباء والبنين والحفدة جميعا فيعيش الكلّ تحت سقف واحد»[7]، ولكن للأسف الشديد هذه العادة يمكن القول أنّها اندثرت في مجتمعي عينة الدراسة، ولكن بقيت آثارها في بعض قراها لحد الساعة كبعض الأسر الموجودة في قرية واد العلندة وقرية ورماس بالوادي، أمّا في سيدي بلعباس فقد زالت هذه العادة تماما.
- الزواج: هو سنة الله في خلقه، فقد قال الله تعالى في هذا الشأن﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[8]، فالزواج هو العلاقة التي تجمع بين الرجل والمرأة في الحلال، ومنه فهو نظام اجتماعي، تتمثل فيه بنية الجماعة ويخضع في نشوئه لتقاليد وأعراف[9]، ومن طقوس التي مازالت متوارثة في وادي سوف ليلة الحنة الفُتُولْ حيث يقمن عجائز كبار السن بظفر شعر العروس المغطاة الوجه بخيوط ترمز للوني العلم الوطني الأخضر والأحمر وهن يرددن بعض الأناشيد والأغاني الشعبية القديمة جدا مثل:

سَباقت رَبِي وصَلاة عَلى النبِي***** مَنْ سَبقْ الله يَا مُحَمدْ يَا عَلِي
وَحَنِيْنَا الْحَنَانِي ومَازَالْ الْفُتُولْ ***** رُوحِي يَا لِبْنَيَا يَعْطِيكْ بِالقُبُولْ[10].

كما توجد بعض العائلات لأهل العروس يوم الحنّة يفضلون الذهاب إلى إحدى الأضرحة تباركا به حتى يصلح حالها، كضريح سيدي أحمد التجاني بتماسين أوسيدي القراري بكوينيين وغيرهم من أولياء الله الصالحين، ويحدث هذا خاصة في القرى، بينما أهل العريس يقومون بحفل أو المحفل يجتمع فيه أصدقائهم وأحبابهم في ساحة واسعة وهذا يوم زف العروس لبيت زوجها بعد صلاة العصر، ليرقص الشباب على وقع دفوف والمزامير والغيطة(الزرنة)، وكذلك بحضور أصحاب بنادق البارود والقرابيلة[11]، ومؤخرا عاد بعضهم للموروث وذلك عن طريق إقامة الخيمة لشرب

الشاي فيها وأكل الفول السوداني(الكوكاو)، مع وجود الجمل كرمز للبداوة والأصالة والتراث، أمّا سيدي بلعباس فهناك طقوس قد اشتركنا فيها كحضور وليمة العشاء ليلة الزفاف وأيضا الرقص الشعبي كرقصة العلاوي وكذلك وجود القرقابوا، وبهذا نشاهد صورة للفولكور الشعبي«باعتباره ماضي حي»[12]، أي ماضي متوارث منذ القدم في مجتمعي عينة الدراسة وهذا دلالة على التماسك بين أفراد المجتمع الواحد.

- الولادة: طبعا من خلال الرابط المقدس الزواج سيكون نتاجه الأبناء الذين هم زينة الحياة الدنيا، وعليه أردنا أن نتعرف على أهم رموز الولادة المتوارثة لحد الساعة عند بعضهم في منطقتي الدراسة، فمنطقة وادي سوف لديهم بعد زيادة المولود بسبعة أيام ما يعرف(بالسْبُوعْ) وهو طهي البركوكش أو الطعام وتوزيعه على الأقارب والفقراء، كما أن سُرّةَ المولود عندما تسقط تدفن في المدرسة أو المسجد اعتقاد منهم إذا فعلوا ذلك يكون ابنهم من ذوي العلم، وفي الأربعين يلبسون المولود ثوب جديد مع القضيب في اليد بألوان وطنية زاهية، ويعلقون له سرة الكمون مع «الخمسة...عدد أصابع اليد»[13]، وهذا خوفا من الحسد والروح الشريرة التي قد تصيب الأطفال الصغار في اعتقادهم، أمّا في سيدي بلعباس، فعندهم أيضا يطبخون البركوكس ولا يتم تحديد يوم معين وتسمى الوليمة بالقصعة بدلاً من السبوع (الأسبوع).
- الختان: من التقاليد المتوارثة يعلقون الراية ذات الألوان العلم الوطني على سطوح المنازل للدلالة على وجود ختان في هذا المنزل، مع صناعة الجْلاَبْ وهو متكون من ثلاثين سرّة لمادة البخور ذات اللّون الأبيض المربوطة بالخيط الأخضر والأحمر، كما هناك بعض الأسر تحتفل بذلك من خلال زغردة النّسوة مع بعض من الأهازج والأغاني كأن يقلن:

الله يَعِينَكْ يَـــا طَهَارْ ***** عَلى الصـــلَاه والعِبَادَه
خَشَشْتَنَا لِدِينْ الإسْلاَم ***** الله يَفَكْرِكْ فِي الشَهَادَه[14] .

أمّا في سيدي بلعباس فعندهم يلبس المولود العباءة والبرنوس والحذاء (البليغة) وتحنى له يديه وقدميه ويكحل له عينيه.

- المناسبات والأعياد: من العادات والتقاليد التي مازالت متوارث في منطقتي عينة الدراسة أنّهم يومي عيد الفطر وعيد الأضحى والمولد النبوي الشريف، تسمع صوت القصيد على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من أعالي منابر المساجد والزوايا، وخاصة في منطقة الوادي وبضبط في مسجد حي الأصنام، وكذلك العديد من المساجد الأخرى المجاورة، وفي سيدي بلعباس نفس الشيء خاصة في زوايا، وهذا يدل على أن مجتمعي الدراسة متمسكين ومتشبثين بكل التقاليد والعادات التي تربطهم بدينهم الحنيف الإسلام. أمّا في شهر رمضان من العادات التي توارثوها ومازالت في المجتمع وادي سوف لليوم هي فرحة الأطفال يوم السادس والعشرون(26) من رمضان، حيث يتجولون الأطفال في الشوارع لطلب القَدْرِي والمتمثل في مناب الله وينشدون بعض الكلمات فيقولون:

طَابْ وَلَّا مَازَالْ كَانْ طَابْ هَاتُوهْ **** كَانْ مَا طَابِشْ انْزِيدُوا سَاعَه وِنْجُوا.

وفي سيدي بلعباس من عاداتهم أن البنت التي تصوم لأول مرة يلبسوها الشدة وهي زي تقليدي ويقصون لهنّ خصلات من شعرها، يجعلون القطران في يديها وقدميها حتى لا يمسسها الجان. وفي فصل الربيع في منطقتي الدراسة يحتفلون بقدومه مثل باقي المناطق الأخرى من الوطن الحبيب، ولكن كل واحد حسب عاداته وتقاليده الخاصة به، فمنطقة وادي سوف لا تظهر كثيرا مظاهر الاحتفال به سوى في طهي أكلة الشعبية في بعض مناطقها المتمثلة في المرفوسة بالدهان، أمّا في سيدي بلعباس باعتبارها منطقة زراعية وقد أطلق عليها قديماً بمدينة الكروم، فكانت تحتفل بعيد يناير(الناير)، ومن مظاهره أنّهم يجمعون في قصعة كبيرة أنوع من المكسرات والحلوى والتمر ويجتمع عليها أفراد العائلة الكبيرة، لتقوم كبيرة العائلة الجدة بالتوزيع على كل أفراد العائلة، وكذلك تجمعهم قصعة البركوكس وهي أكلة شعبية متوارثة عبر الأجيال. وأعتقد أن الاحتفال بعيد الربيع والناير في كلتا المنطقتي عينة الدراسة هو عادة أمازيغية

قديمة جدا متوارثة، وهذا يؤكد بأنّ لذاكرة الشعبية دور بارز في الحفاظ على موروثنا الشعبي عبر الأجيال متتالية ومختلفة.

2)- موروث المعتقدات:

إنّ الباحث في معتقدات سكان منطقتي الدراسة يجد أن ثقافتهم واضحة من خلال تماسكهم بالدّين الإسلامي ومسلّماته العقائدية وأهمها الإيمان بالله والرّسالة المحمّدية واليوم الآخر والجنّة والنّار والملائكة والشّياطين والقضاء والقدر، كما كان لهم في القديم معتقدات شعبية ظاهرة، كاعتقادهم بوجود الجنّ الذي يؤثر على الإنسان فكانوا يذهبون إلى الطالب أو الشوّافة أو القزانة، لاعتقادهم أن لديهم قدرة على فك السّحر[15]. ويمكن القول بأنّ هذه المعتقدات مازالت موجودة عند بعضهم للآن.

- **الزوايا:** من أشهر الزوايا منطقة وادي سوف الزاوية التيجانية التي لها جذور في مدينة فاس المغربية لها فرعان رئيسيان بالوطن وهما عين ماضي وتماسين، والقادرية المنتشرة في كل القطر من والوطن، والتي تنتمي إليها قبائل بني عامر، ومن الطقوس المتوارث عبر الأجيال هو أن الزاوية التيجانية في فصل الربيع من كل سنة يقومون أتباعها من أحباب الشيخ بزيارة مقرها بمدينة تماسين تقرت، فيذهبون على شكل تجمعات مترابطة ومنظمة، بالإضافة لتقديم الهدايا المختلفة كما يقوم أصحاب الزاوية بتقديم مأدبة الغذاء لمن أراد من الحضور، لنجد منطقة سيدي بلعباس، عندها العديد من الزوايا منها الزاوية التيجانية والتي تمثلها في سيدي بلعباس عائلة معروفة بلقب الغول، والزاوية الدرقاوية فرع للعلاوية تمثلها عائلة شوكشو. ومنه فالزوايا لها دور بارز في مجتمعي عينة الدراسة منذ القدم وقد ظهر ذلك أكثر خاصة في عهد الاستعمار، حيث ساعدت على تماسك وحدة الوطن، وسنتعرف على دورها التنموي أكثر في الجانب الأنثربولوجي.
- **الوعدة أو الحضرة:** وهي احتفال طقوسي اجتماعي في أعماقه، وتتشكل الوعدة من جمع كبير من الناس جاءوا لتبارك وأداء طقوس العبادة لحبهم اتجاه وليهم

الصالح، فتقام الطبول والإنشاد من طرف مجموعة من الرجال، أمّا البقية فتارة تردد وتارة أخرى تستمع، وفجأة دون سابق إنذار تسمع أحدهم بصوت مرتفع يناجي يا سيدي، لتجده يصرخ ويرقص بحالة هسترية لاتصدق حتى يغمى عليه، وفي الحقيقة لقد تلاشت هذه المعتقدات تقريبا مع الجيل الجديد بقيت فقط مع كبار السّن جدّا.

ومن أشهر الوعدات بسيدي بلعباس وعدّة سيدي يحي ووعدّة رجال البلاد، حيث شهدت بلدية بن باديس الواقعة نحو40 كلم غرب ولاية بلعباس، وهي تنظم سنوياً هذه الوعدة بجلسات القوال، أين يتفنن القوالون في استعراض ما لديهم من حكم وأمثال قديمة تعبر بالدرجة الأولى عن الحياة اليومية وهمومها، وكذا سلوكات الأفراد، وتتخللها مقولات مأثورة لحكماء المنطقة تحمل كل معاني النصح والإرشاد، ومن أشهر القوالين الذين أمتعوا محبي هذا النوع من الفن، الشيخ التواتي والشيخ بسناسل الذي تنوعت أقواله بين محاكاة الشباب بين اليوم والأمس، وكذا واقع المرأة في الحقبتين[16]، لتليها جلسات الشعر الملحون التي أبدع شعراء محليون، وما زاد من جمالها صوت القلوز والقصبة المرافقتين لتلك الأجواء الثقافية وحضور العديد من الشعراء بقصائد مختلفة تحكي زماننا الذي نعيشه وزمان الماضي القديم. وبهذا فإنّ الوعدة لها أثر واضح في نفوس بعض الناس المؤمنين بها في منطقتي الدراسة ولذا بقيت متواثة ومتسلسلة عند أجيالهم المختلفة.

3)– موروث الحكم والأمثال الشعبية:

إنّ المتتبع لهذا النوع من الموروث سواء على المستوى العربي والوطني يجده له أهداف ومواعظ قيمة يصبوا إلى تحقيقها كصقل الإنسان وتنمية فكره وأسلوبه في الحياة، ومن بين الحكم والأمثال التي يمكن القول أنّها قد ذكرت في كلتا منطقتي عينة الدراسة نذكر:

- يَفُضْ مَالْ الجِدِينْ تَقْعَدْ صَنَعَةُ ٱلْيَدِينْ، مِن خلال هذه حكمة يتضح بأنّ المال موروث زائل، أمّا صنعة حرفة اليد مستمرة حتى موت الشخص.

- أَعْطِينِي الماء والخُبْزْ والْهْنَاء. تظهر هذه الحكمة حقيقة مختفية وهي متطلبات البيولوجية لأساسيات حياة الإنسان.
- خُوك خُوك لاَ يُغَرْكْ صَاحَبكْ، ينمي هذا المثل على تشجيع العزم بين الإخوة فيما بعضهم لكونوا يد واحدة.
- أقصد الدار الكبيرة إذا ما تعشيتش تبات فيها متغطي، وهذا المثل فيه حكمة كبيرة، حول الكرم. ومن أمثال وحكم سيدي بلعباس نذكر:
- خيمة نساء وقربة يابسة، يقال هذا المثل لما يكون البيت عامر بأفراد الأسرة ولا أحد يحرك ساكناً، مثلا في أمور البيت كالنظافة والطبخ ...الخ.
- قالوا الديب ما يتربي والقلايلي ما ينسى هز كتافه، دلالته لمن ادع التوبة ثم عاد إلى أفعاله.
- اللي يبغيك ما يبنيلك قصر، واللي يكرهك ما يحفر لك قبر، للدلالة على الإيمان بقضاء الله وقدره[17].

4)– موروث الشعر والألغاز الشعبية:

لقد شكل الشعر الشعبي مكانة كبيرة في أوساط الأحياء الشعبية القديمة، لأن شعرهم كان نابع من الواقع المعاش، أي يعبر عن الصورة الموجودة في تلك الفترة، وعليه فإنّ كلتا المنطقتين قد حافظا على أصالة منابعه ولم تستطع السنوات الماضية أن تمحي ذاكرة مورديه، لأن الكثير من الكتاب سارعوا لجمع ما تبقى في الذاكرة الشعبية في الشعر الشعبي وقد ظهر ذلك في عدّة مؤلفات من بينها ديوان إبراهيم بن سمينة، وديوان أحمد بن عطا الله، من تأليف الدكتور أحمد زغب، وكذلك كتاب من روائع الشاعر الشعبي علي عناد للمؤلف الأستاذ محمد الصالح بن علي، فالشعر الشعبي قد تشكلت منه الأغنية الفولكلورية التراثية وكان أشهر من أداها خاصة في منطقة وادي سوف الفنان عبد الله مناعي. كما نجد للشعر الملحون بصمته الخاصة في منطقة سيدي بلعباس، حيث كان ولازال يعبر عن أصالة المنطقة الضاربة في

الجذور، ومن أشهر شعرائها نذكر على سبيل المثال: مصطفى بن إبراهيم، ومصطفى بن الحراث، وأبي ساكن بن محمد بن عسكر الهلالي.

وإن قصيدة مصطفى بن إبراهيم هو شاعر الحنين إلى الوطن، جزائري ولد بقرية بوجبهة بناحية سيدي بلعباس حوالي سنة 1800(ياطويل الرقبة) التي غناها الأستاذ الراحل أحمد وهبي رحمه الله وقصيدة يامنة أيضا غناها الفنان الكبير أحمد وهبي، وقصيدة قلبي تفكر لوطان، وهذه مقتطفات منها:

قلبي تفكر لوطان **** الزهور وركوب الخيل
ارعيتي والفرسان **** خودات في الحراج تميل[18].

أمّا بالنسبة للألغاز الشعبية فهي موجودة ولكن بشكل قليل لأن الأبناء لم يعودوا مهتمين بسماع الأحاجي والألغاز من كبار السّن بسبب انشغالهم بالدراسة والتنمية والتطور والعولمة والتكنولوجيا المختلفة. ولكن خلال بحثنا هذا تحصلنا على لعبة شعبية بعنوان "فكر وتفرهد" من جمع الأستاذ محمد الصالح بن علي وهي تهدف لإعادة إحياء موروث الأجداد من الألغاز الشعبية بلهجة وادي سوف ومنه نذكر:

- دارنا بُودمسه، ترفع خمسه وحل هذا اللغز هو العفان.
- كرشه جلود، وظهره عود، وفيه أمايز القنفود وحله هو القرداشة. ومن ألغاز سيدي بلعباس:
- مخبوز كالخبزة ويصيح كالمعزة (الطبل).
- من فوق لوح ومن تحت لوح وفي وسط روح (السلحفاة)[19].

5)- موروث العمران والأماكن الأثرية:

من الآثار التي مازالت موجودة للآن في منطقتي الدراسة نجد مثلا حي الأعشاش الذي يعدّ من الأحياء العتيقة، أيضا بعض زاويا كزاوية قمار رغم أنها بدأت تدخل عالم العصرنة، أيضا الغوط الذي يعد موروث حيّ موجود إلّا في منطقة الوادي، أمّا سيدي بلعباس نجد أن فرنسا قد خلفت وراءها منشآت ومباني، حيث كان يطلق عليها باريس الصغيرة ولا تزال هذه المعالم شاهدة ليومنا هذا.

6)- الملابس والحلي التقليدية:

تشتهر منطقة الوادي باللباس الحولي، ولكن للأسف الشديد ضاع هذا الموروث التقليدي في ضوء العولمة، ما بقي متوارث هو القدوارة (القميص) وكذلك سروال العربي الذي يشبه سروال أهل غرداية إن لم نقل هو نفسه، أيضا البرنوس الذي نشترك فيه مع سيدي بلعباس وأيضا أشهر فساتينها الوهراني، وبالنسبة للحلي ما بقي متوارث هو القرط الذي تزين المرأة به أذنيها والمسمى زوجين ذهب، وباقي الحلي المصنوعة بالفضة فقد اندثرت وجاء مكانها الذهب بأنواعه المختلفة.

7)- الحرف اليدوية:

تختلف صناعة الحرف اليدوية حسب توفر المواد الأولية لكل منطقة ففي منطقة وادي سوف معروفة بكثرة نخيلها، لذا وجدوا من السعف مادة أولية خام لصناعة عدّة أشياء، وعليه فإنّ هذه الأشياء مازالت متوارثة للآن عند بعض منهم، خاصة في القرى هي القفة والمروحة والطبق كلهم مصنوعين من مادة السعف، كما اشترك أهل سوف وأهل سيدي بلعباس في نسج الزرابي والحنابل والبرانيس والقشابية. ومن الحرف أيضا النقش على الجداران حيث اشتهر بها عمر ڤاڤا من ڤمار.

ثانيا: المستوى الاثنروبولوجي:

إنّ الاثنروبولوجيا لها دور بارز في تنمية المجتمعات سواء على المستوى العالمي أم المحلي، وعليه لا يمكن أن نتصور اجتماعية دون أن تكون هناك تنمية اجتماعية أو تنمية اقتصادية أو تنمية ثقافية [20]، ويظهر ذلك من خلال المشاركة الفعالة بين المجتمعات مع بعضها بعض كما حدث في مجتمعي الدراسة ويظهر ذلك من خلال النقاط التالية:

أ)– الموروث غير مادي (الروحي):

في الواقع إن كل موروث الشعبي يعبر عن«ثقافة معينة هي انعكاس من حيث شكل مفهومه لمجتمع ما»[21]، وإذا حافظوا على هذا الموروث، فإنّه ينتج عنه عدة مجالات لتنمية وهي كالآتي:

- تظهر ملامح التنمية الاجتماعية من حيث العادات والتقاليد، في قضية الأسرة واجتماعها وعيشها تحت سقف واحد فهذه العادة تساهم في تنمية وصال الترابط الاجتماعي فيما بينهم، رغم محاولات العولمة بوسائلها التكنولوجية المتطورة كالفايسبوك وغيره– في القضاء على هذا الترابط من خلال تشتيت الشمل الأسري.
- كما تظهر ملامح التنمية الاجتماعية في كلتا منطقتي عينة الدراسة في قضية الزواج بداية من«الاهتمام بالأسرة بوصفها نواة المجتمع، والعناية بالأطفال بوصفهم أفراد الغد»[22]، ويظهر ذلك من خلال العناية بما يمر بها من مظاهر تأسيسها كالزواج وإعلانه ثم تكوين أفراد الأسرة بعملية التكاثر التي حافظت على تسلسل البشرية.

وعليه فإنّ زواج ابن المنطقتين بمسلمة من نفس المنطقة وضواحيها التي ينتمي إليها، قد يؤدي في كثير من الأحيان دورا هاما في الجانب التنموي وهو المحافظة على التماسك البنائي للمجتمع المحلي لمنطقتي عينة الدراسة، وذلك عن طريق المصاهرة التي تنمي بينهم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، أمّا الزواج من الأجنبية – مثلا فرنسية– قد يؤدي إلى تفكك«وحدة البنية وقلة التضامن والتعاون»[23] بين الأعضاء الأسرة الواحدة ويعود السبب في كثير من الأحيان إلى الاختلاف في الدين والعادات والتقاليد والثقافة والتفكير وغيرها من الأسباب، التي قد تؤدي بالزواج إلى الانهيار مع تشتيت الأسرة. ومن الجانب التنموي الاجتماعي للزواج أيضا هو أنّه يساعد في عملية حفظ النسل وهي مسألة حياتية لا تقتصر على الإنسان فحسب بل هي موجودة عند جميع الكائنات، غير أنّها بالنسبة للإنسان تحدث عن طريق عملية مهذبة، فهي محفوفة بطقوس معينة تحفظ للعملية كرامتها

وقيمتها لنتج عن هذا دور تنموي يتمثل في الاعتراف بالمولود وتسميته بلقب والده، وهذا المظهر الإنساني تشترك فيه جميع المجتمعات منذ القدم.

وعليه فإنّ أصحاب منطقتي الدراسة قد تشبثوا بالقيم الإسلامية والثقافية في قضية الزواج التي كانت واضحة من خلال بعض الطقوس والعادات التي ظهرت في طريقة تعبيرهم عن فرحتهم بتلك الرقصات والأغاني والأهازيج والأناشيد فالجانب التنموي في هذا المجال كان واضح في العلاقة الروابط الاجتماعية بين أسر المجتمع الواحد، يجمعهم المكان والعادات والتقاليد والثقافة الواحدة، كما يساعد على الحفاظ على عملية النّسل واستمرار الحياة عبر الأجيال، وعدم تخالط الأنساب بالعلاقات المحرمة.

كما شكل جانب المناسبات والأعياد دورا تنمويا من خلال ظهور تلك التّجمعات في المساجد والزوايا أيام العيد والمولد النبوي الشريف، وأيضا في صلاة التراويح بشهر رمضان وفرحة الأولاد بليلة السادس والعشرين من رمضان، فهذا كله ينمي العلاقة فيما بينهم ويزيد في حبل التواصل والتعارف وربط الوصال وصلة الرحم مع بعضهم، وهذا ما نصت عليه الشريعة الإسلامية عامة، وإنّ هذه المناسبات نمت روح التّعاون وعبارات المحبة والإخلاص والتّماسك فيما بينهم كمجتمع عربي موحد.

- كما تظهر ملامح التنمية الاجتماعية أيضا على المستوى الوطني عامة، ومستوى عينة الدراسة خاصة، من خلال الدور الثقافي والاجتماعي الذي تسهم به العديد من الزوايا والقائمين عليها، حيث تقوم كل من الزاوية التيجانية والقادرية بوادي سوف بتقديم مساعدات لبعض العائلات المحتاجة، أيضا الدور الهام الذي تقوم به الزاوية العلاوية بسيدي بلعباس وهذه النقطة تشترك بها مع زوايا وادي سوف وزوايا مختلفة بالوطن وخاصة زاوية أدرار، وهو العمل على تحفيظ كتاب الله مع إقامة حلقات الذكر والصلح بين المتخاصمين، كما نجد بعض الزوايا قامت بتشجيع الباحثين والطلبة وذلك بفتح مكتبات بمقرها كالزاوية سيدي سالم وزاوية التيجانية بوادي سوف، وأيضا الزاوية القادرية التي أسهمت في تقديم مساعداتها لنشر بعض المؤلفات مثل كتاب إضاءات أوراق نقدية – مقالات جمعها الأستاذ بشير خلف

للمرحوم شرادة الجيلاني- وكل هذا دليل على الدور الذي تقدمه الزوايا في التنمية الاجتماعية والثقافية.

- فإنّ المتتبع للملامح التنمية الاجتماعية في منطقتي الدراسة يجدها تظهر أيضا على مستوى المعتقدات كالوعدة أوالحضرة فإنّ ملتقياتها تذكرنا بسوق عكاظ وتنافس الشعراء مما يساهم في التنمية الثقافية والفكرية للمجتمعي الدراسة، ومنه فإنّ المجتمع العباسي يعرض في وعداته عروض الفنتازيا التي استقطبت العديد من العائلات، خاصة الأطفال الذين انبهروا بجمال الجواد العربي الأصيل ولباس الفارس وبندقيته التقليدية التي دوت طلقاتها أرجاء المنطقة، وهذا كله يشجع على التنمية المحلية للمنطقة والتنمية العالمية لتكون منطقة سياحية، «وتنظم على هامش الوعدة سوق شعبية يستغلها التجار في عرض منتوجاتهم التقليدية كالحلي والألبسة التقليدية، العباءة الرجالية التي تميز رجل المنطقة الغربية، ناهيك عن الحلويات التي تشتهر بها الوعدات كحلوة غزل البنات، والحلوى المعروفة بـ"النوڤة"، لذلك فإنّها فرصة سانحة لتجار المنطقة للربح الوفير والسريع!»[24]، وهذا ما يحدث أيضا من خلال وعدّة بابا مرزوق في وادي سوف، حيث تساهم في الجانب التنموي من كل الجوانب اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا.

- تظهر ملامح التنمية الاجتماعية من خلال موروث الألعاب والألغاز الشعبية، لما لها من دور تربوي وتعليمي وتثقيفي، وذلك باعتبار الثقافة الشعبية أنّها تتضمن«منتج ثقافي ينال إعجاب الناس العاديين»[25]، ومنه فإنّ لعبة الخربقة مثلا التي مازالت موجودة بالمنطقة لحد الساعة تعدّ موروثا شعبيا سوفيًا متوارثا من جيل إلى آخر، ومنه فإن الألعاب والألغاز الشعبية لهما دور تنموي اجتماعي فكري، لأنّهما يساعدان«على ربط الصلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات بتجميعهم في مكان معين، وزمان معين»[26]، فهذا النوع من الموروث ينمي الجانب الثقافي والفكري والذكاء والفطنة لديهم، لذا أتمنى أن يتمسك أصحاب منطقتي الدراسة – خاصة الألغاز- بهذا الموروث الثقافي.

- تظهر ملامح التنمية الاقتصادية للموروث الثقافي بالنسبة للجانب غير مادي في العديد من المظاهر كالأسرة الواحدة والمتماسكة التي لها دور فعال داخل المجتمع من خلال تجمعها كوحدة مترابطة، وكذلك في المناسبات والأعياد وهذا بمساهمتها نوعا ما من الجانب التنموي الاقتصادي كقضية التهادي فيما بينهم سواء في مناسبة الزواج والولادة والختان وغيرها، وكذلك في قضية تقديم المساعدات المادية للمحتاجين...

كما نجد من جهة أخرى السلطات المعنية وبعض محبي التراث قد حاولوا الحفاظ عليه لما له من دور تنموي فعال في الجانب الاقتصادي، وذلك من خلال المحافظة على العادات والتقاليد لكلتا منطقتي عينة الدراسة ومحاولة ربطه بالواقع ومشاركته في مختلف المعارض الدولية والوطنية من أجل التعريف به وبمنطقتيه، وعليه فقد عدّ الـتراث مؤخرا من قضايا التنمية الوطنية، وخاصة بعد أزمة النفط فعادت الجزائر إلى واقعها تبحث عن موارد جديدة، لترى بأنّها غنية بتراث عريق يستحق المحافظة عليه لأنّه يساهم في مجال التنمية وخاصة التنمية المستدامة وهي محصلة تفاعل واشتراك أربعة عناصر مهمّة وهي عنصر الديني والعنصر الاجتماعي والعنصر الاقتصادي والعنصر الثقافي، وفي الحقيقة إذا اجتمعت كل هذه العناصر فإنّ الإنسان يكون قائدها، وخير دليل على ذلك عيد المدينة بوادي سوف الذي يقام كل سنة لإحياء التراث في ضوء جانب تنموي اقتصادي، وكذلك مربي الخيول والجمال "العيد الفاس" بوادي العلندة، باعتباره مستودع لتراث الثقافي. ومنه فإنّ بعض الدراسات تعتمد على«السمات السيكولوجية للأفراد معتبرين حاجة انجازها هي أساس التنمية الاقتصادية والثقافية»[27].

- تظهر ملامح التنمية الثقافية تقريبا في كل مجالات الموروث الثقافي التي حاولنا ذكرها في بعض النقاط السالفة، ومنه فإنّ الاستثمار في الجانب التنموي الثقافي يظهر من خلال عقد ملتقيات ومهرجانات تروج للسياحة والتعريف بمنطقتي عينة الدراسة،

مع«إعادة بعث هذه السلوكيات والعادات والتقاليد وإقامة أيام دراسية وملتقيات والحديث عنها لأنّها أجود استثمار ثقافي»[28]، في مجال التنمية الثقافية.

ب)– الموروث المادي:

إن انعكاس الموروث الثقافي المادي يعود دائما على عدّة جوانب تنموية كالاجتماعية والاقتصادية والثقافية ومن مظاهرها نذكر مايلي:

- تظهر ملامح التنمية الاجتماعية في العمران والأماكن الأثرية، وذلك من خلال جلب السواح إليها، فالمكان له دور في قضية الموروث بالنسبة للفرد والجماعات، ويتمثل ذلك في الانتماء للبيئة والموقع الذي يعيشون فيه هذا من جهة ومن جهة أخرى، يساعد في التنمية الاجتماعية في قضية العيش مع بعضهم، مثلما فعلت الخيمة في قديم الزمان، حيث كانت مأوى يُقيهم من حرارة الشمس وبرودة الشتاء، ولكن هذا الموروث للأسف الشديد اندثر، بقيا فقط في البادية عند البدوى الرحل أو كموروث ثقافي تزين به في الأعراس والمحافل السياحية فقط.

كما يمكن أن نؤكد بأن المجتمع السوفي قد ارتبط بالغوط منذ سالف العصور، كما ارتبط المجتمع العباسي بالأرض وقد ساعدا هذا كثيرا في التنمية المحلية للآن، رغم أن الغوط أصبح في الفترة الأخيرة مهددا بالاندثار، وأتمنى من السلطات المعنية المحافظة عليه لأنّه يعدّ موروث ثقافي عالمي بدرجة الأولى، لم يمتلكه أحد إلّا منطقة وادي سوف، وعليه فقد ساهم في الجانب التنموي الاجتماعي فهو كان مصدر رزق الكثير من الأسر في القديم ولا يزال لحد الساعة في العديد من القرى التي مازال غيطانها لم تصب بنوبة صعود المياه، فالغوط « تجتمع فيه النسوة، ويلعب الأطفال جماعة ويتعاونون في أداء بعض المهمات وهذا اللقاء اليومي المباشر تكونت منه عادات حسنة كتهادي بمنتوج الجنان، خضروات وفواكه وبواكير البسر أو تمر نادر النخيل، واللاقمي، كما أن الجيران يتبادلون وسائل العمل عند الحاجة»[29]، وفي الحقيقة مازال رابط المحبة موجود بين الكثير من الأسر في كلتا منطقتي عينة الدراسة خاصة في قضية تهادي بمنتوج الجنان سواء الخضر الكروم التمور، وفي الآونة الأخيرة البطاطة التي اشتهرت بها

منطقة الوادي، وبهذا نجد بأن الموروث الثقافي المتمثل في الغوط والأرض قد ساهم في التنمية الاجتماعية كثيرا وذلك بغرس المحبة والألفة والطمأنينة في القلوب فيما بينهم.

تظهر ملامح التنمية الاجتماعية أيضا في الموروث العمراني الذي شكل دورا تنمويا في المجتمع، حيث نجد وادي سوف اشتهرت باسم مدينة ألف قبة وقبة، بسبب طابعها العمراني المشكل من القباب لأنّها تلطف الجو، كما أنّها تمنع تراكم الرمال فوق سطوح المنازل أثناء الرياح. كما نجد أن حي الأعشاش بالوادي قد أصبح موروث ثقافي بدرجة الأولى، وذلك بتصنيفه كقطاع محفوظ من طرف وزارة الثقافة، وهذا ما أدلى به الأستاذ محمد الصالح بن علي من خلال مداخلته بعنوان:"القيمة الفنية والتاريخية لعناصر التحسين الخارجية في حي الأعشاش" بالملتقى الوطني التاسع حول التراث بالوادي ماي 2016م، وبالتالي يمكن عدّها مركز مهم لسواح الأجانب، كما نجد العمران بمنطقة سيدي بلعباس قد شكل دور تنموي من خلال مواقعه الأثرية، وذلك بدليل وجود مقبرة مسحية قديمة بالمنطقة بالإضافة إلى المنشآت الاستعمار الفرنسي التي مازالت شاهدة لحد الآن وغيرها من الأماكن الأثرية التي شكلت دور تنموي هام ضمن المجتمع العباسي.

- تظهر ملامح التنمية الاقتصادية في الموروث المادي في العمران الذي يعد مركز سياحي لسواح الأجانب، مثل حي الأعشاش والزوايا وأيضا المنتجع للغزال الذهبي لجيلاني مهرية وهو جوهرة أثرية للحفاظ على الموروث السوفي بكل أنواعه، وفي نفس الوقت يساهم في التنمية الاقتصادية المستديمة. كما توجد في سيدي بلعباس عدّة مناطق سياحية تجعلها قبلة لزوار وبالتالي تنمي من النّاحية الاقتصادية. كما كان للحرف اليدوية دورا في تنمية الاقتصادية، لأنّها تساهم في الدخل المادي من خلال المهرجانات والاحتفالات التي تقام في منطقتي عينة الدراسة.
- تظهر ملامح التنمية الثقافية في العمران والأماكن الأثرية بانتمائهم للمكان من الجانب الثقافي،«الذي يتكوّن من خلال علاقة الفرد والجماعة الاجتماعية وتفاعلهم

مع بيئتهم الطبيعية وكيف تفضي هذه العلاقة إلى انتمائهم إلى المكان وارتباطهم به»[30]، فالمكان والحرف اليدوية لها دور تنموي ثقافي ينمي على مدى تفاعل أهل المنطقتين بما هو موجود حولهم.

خاتمة:

من خلال ما سبق حاولنا إظهار بعض أوجه الموروث الثقافي لكلتا منطقتي الدراسة، فيه ما وقع تشابه بينهما، وهناك فيه اختلاف، كما أنّه هناك بعض الموروث الذي يمكن القول بأنّه مازال موجود للآن، بينما آخر قد اندثر وانمحى، بسبب التطور والعولمة، فذهبت العديد من العادات والتقاليد والطقوس القديمة مع زمنها، بقي فقط ما يمكن أن يتوافق مع القرن الواحد والعشرين، لأنّه لا يمكن للإنسان في هذا القرن العيش في خيمة في ظل توفير كل سبل الراحة والتكنولوجيا والتطور.

هذا ويبقى لكل مهتم أو باحث بعلم الاثنوبولوجيا أن يضيف على هذه الأسطر والنقاط التي تطرقنا لها ويثري النقاش فيها، على اعتبار أن ما تم التنويه إليه في هذه الورقة البحثية هو بمثابة قطرات من بحر الموروث الشعبي في الجزائر.

الإحالات:

(1)- مجمع اللّغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 1425 هـ- 2004 م، مادة "ورث".

(2)- أحمد زغب: مبادئ الأنثوبولوجيا، مطبعة سخري، الوادي، الجزائر، ط1، 2012م، ص: 9، 10.

(3)- شاكر مصطفى سليم: قاموس الأنثروبولوجيا انجليزي-عربي، جامعة الكويت، ط1، 1981م، ص: 56.

(4)- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط4، 2000م، ص: 31.

(5)- ثريا التجاني: دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري وادي سوف نموذجا, دار هومه, الجزائر, (دط), (دت)، ص: 12.

(6)- أحمد آمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، مكتبة النهضة، مصر، ط2، 1953م، ص:د.

(*)- النووي: الأسرة البسيطة المتكونة من اثنيين متزوجين وأبنائهم، ينظر: أحمد زغب: مبادئ الأنثوبولوجيا(علم الإنسان)، ص:87.

(7)- كمال بن عمر: الألغاز الشعبيّة في منطقة وادي سوف، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2007م، ص: 24.

(8)- سورة الروم، الآية 21.

(9)- ينظر: عبد السلام الترمانيني: الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام، عالم المعرفة، العدد 80، 1984م، ص: 11.

(10)- أغنية شعبية مسموعة من السيدة الدوش عائشة: 70 سنة، من عرش الفرجان، في 15 ماي 2016م، الساعة 10:00 صباحا.

(11)- ينظر: أحمد بن الطاهر منصوري: الدر المرصوف في تاريخ سوف، دار الهدى، الوادي، الجزائر، (دط)، 1988م، ج1، ص: 89.

(12)- شوقي عبد الحكيم: مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، دار ابن خلدون، بيروت، لبنان، ط2، 1983م، ص: 8.

(13)- أحمد زغب: عمود الدخان رواسب الآخر في ثقافتنا الشعبية، دار الثقافة، الوادي، الجزائر، ط1، 2015م، ص: 79.

(14)- أغنية شعبية مسموعة من السيدة حليمة سالم: 65 سنة، من عرش أولاد الحبيب، في 20 ماي 2016م، الساعة 11:00 صباحا.

(15)- ينظر: أحمد زغب: لهجة وادي سوف دراسة لسانية في ضوء علم الدّلالة الحديث، مطبعة مزوار، الوادي، الجزائر، ط1، 2012 م، ص: 15.

(16)-الموقع الالكتروني: غنية ش: ملتقى الثقافات الشعبية وتخليد المآثر البطولية، جريدة الفجر يومية جزائرية، 26/ 05/ 2016م، تاريخ الإطلاع 22/05/2016 الأحد الساعة 12:45 صباحا،
http://www.al-fadjr.com/ar/index.php?news=161912?print

(17)- مثل شعبي مسموع من السيدة خشاب خيرة: 60 سنة، من عرش أولاد بلهادي، في 21 ماي 2016م، الساعة 19:30 مساء.

(18)- ينظر: عبد القادر عزّة: مصطفى بن إبراهيم شاعر بني عامر ومدائح القبائل الوهرانية، مفيد للنشر والطباعة، الجزائر، دط، 2011م، ص: 12، 227.

(19)- ألغاز شعبية مسموعة من السيدة خشاب خيرة: في 21 ماي 2016م، الساعة 19:30 مساء.

(20)- ينظر: رابح كعباش: سوسيولوجيا التنمية، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة، جامعة منتوري، قسنطينة، (دط)2007م، ص: 42.

(21)- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص: 33.

(22)- المازن العرمرضي: لقاء الإسلام والغرب وحقوق الإنسان، منشورات المعهد الدبلوماسي، عمان، الأردن، دط، 1994م، ص: 32.

(23)- محمد عبده محجوب: الاتجاه السوسيو أنثروبولوجي في دراسة المجتمع، وكالة المطبوعات، الكويت، دط، دت، ص: 59.

(24)- ينظر: غنية ش: ملتقى الثقافات الشعبية وتخليد المآثر البطولية.

(25)-هارلمبس وهولبورن: سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2010م، ص: 10.

(26)-عبد المالك مرتاض: الألغاز الشعبية الجزائرية دارسة في ألغاز الغرب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1982م، ص: 27.

(27)- ينظر: رابح كعباش: سوسيولوجيا التنمية، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة، ص: 99.

(28)- عبد دوبم: واقع الشعر الغنائي عند المجتمع البدوي بصحراء الوادي- التجليات والآفاق-، مديرية الثقافة، الوادي، الجزائر، ط7، 2014م، ص: 165، 166.

(29)- علي بوصبيع: الغوط الهود أو الهرم المقلوب، مديرية الثقافة لولاية الوادي، ط1، 2015م، ص: 15.

(30)- شما بنت محمد بن خالد آل نهيان: التنمية الثقافية وتعزيز الهوية الوطنية، دار العين، القاهرة، مصر، ط1، 2013م، ص: 63.